

## الفصل الثالث والعشرون: زكّا العشار

### ١- الاستقبال



يمنح سرّ العباد والتبثيت والقربان حياة المسيح الجديدة. لكننا في مسيرتنا نحو السعادة الأبدية لا نزال نعيش على هذه الأرض مع كل ما نتعرض له من تجارب ومغريات، فنضعف ونزلّ ونخطأ. لا مجال للعباد من جديد! لقد أراد الربّ يسوع، طبيب النفوس والأجساد، أن تواصل الكنيسة عمل الشفاء والخلاص حتى لأعضائها أنفسهم. من هنا، نعيش في المسيحية نوعين من التوبة: توبة أولى أساسية تغيّر كلّ كياننا، وتوبة أخرى دائمة نعيشها يوميًا في التزاماتنا. هل سبق لك أن تبتّ عن عمل سيء اقترفته في حياتك؟ ما مفهومك للخطيئة وهل تشعر بضرورة اختبارك لرحمة الله؟ هل يكفي للإنسان

أن يتوب دون أن يعوّض على من أذاهم؟ هذا ما سنسلط الضوء عليه اليوم من خلال شرح إنجيل زكّا العشار ومفهوم سرّ التوبة.

### ٢- قراءة الإنجيل وتفسيره

#### زكّا العشار (لو ١٩: ١-١٠)

١ وَدَخَلَ أَرِيحَا وَأَخَذَ يَجْتَازُهَا. ٢ فَإِذَا رَجُلٌ يُدْعَى زَكَّا وَهُوَ رَئِيسٌ لِلْعَشَّارِينَ غَنِيٌّ ٣ قَدْ جَاءَ يُجَاوِلُ أَنْ يَرَى مَنْ هُوَ يَسُوعُ، فَلَمْ يَسْتَطِعْ لِكَثْرَةِ الزَّحَامِ، لِأَنَّهُ كَانَ قَصِيرَ الْقَامَةِ، ٤ فَتَقَدَّمَ مُسْرِعًا وَصَعِدَ جُمُيزَةً لِيَرَاهُ، لِأَنَّهُ أَوْشَكَ أَنْ يَمُرَّ بِهَا.

° فَلَمَّا وَصَلَ يَسُوعُ إِلَى ذَلِكَ الْمَكَانِ، رَفَعَ طَرْفَهُ وَقَالَ لَهُ: يَا زَكََّا انزِلْ عَلَى عَجَلٍ، فَيَجِبُ عَلَيَّ أَنْ أَقِيمَ الْيَوْمَ فِي بَيْتِكَ. ٦ فنزل على عجل وأضافه مسرورًا.

٧ فَلَمَّا رَأَوْا ذَلِكَ قَالُوا كُلُّهُمْ مَتَذَمِّرِينَ: دَخَلَ مَنْزِلَ رَجُلٍ خَاطِئٍ لَيْسَتْ عِنْدَهُ! ٨ فَوَقَفَ زَكََّا فَقَالَ لِلرَّبِّ: يَا رَبِّ، هَا إِنِّي أُعْطِيَ الْفُقَرَاءَ نِصْفَ أَمْوَالِي، وَإِذَا كُنْتُ ظَلَمْتُ أَحَدًا شَيْئًا، أَرُدُّهُ عَلَيْهِ أَرْبَعَةَ أَضْعَافٍ. ٩ فَقَالَ يَسُوعُ فِيهِ: الْيَوْمَ حَصَلَ الْخَلَاصُ لِهَذَا الْبَيْتِ، فَهُوَ أَيْضًا ابْنُ إِبْرَاهِيمَ. ١٠ لِأَنَّ ابْنَ الْإِنْسَانِ جَاءَ لِيَبْحَثَ عَنِ الْهَالِكِ فَيُخَلِّصَهُ.

## ١.٢ - الشرح

يصف الإنجيل في مقدمته زكا كرجل خاطئ وقصير القامة لكنه كان يبحث لكي يرى يسوع. فعملنا زكا أن، مهما كانت محدوديتنا، جسدية أم أخلاقية، فهي لا تستطيع أن تفصلنا عن اللقاء بيسوع. إذا كنا مرضى في الجسد أو خطأة وبعيدين عن الإيمان، علينا أن نعرف أن إمكانية الخلاص دائمًا معروضة.

محور النص هو «اللقاء» مع المسيح (آ. ٥-٦). فهذا اللقاء غير مسار الجموع في أريحا وغير حياة زكا وسلوكه. هذا اللقاء تحوّل لاستقبال من قبل زكا ليسوع، في بيته، فرحًا، ممّا يؤكّد أنّ حضور يسوع هو مصدرٌ للفرح. هذا يدفعنا إلى السعي الدائم للقاء به لأنّه مدعاة سلام وفرح وخلاص.

يردّد النص مرتين كلمة «اليوم» (آ. ٥ و ٩) على فم يسوع؛ من خلال هذه الكلمة نفهم أنّ كلّ يوم هو «اليوم» بالنسبة إلى المسيح. فاليوم هو يوم الخلاص، لا غدًا ولا البارحة؛ وتأجيل التوبة لا ينفع، إذ «اليوم» لنا فرصةٌ بالخلاص.

يُخبر الإنجيل عن جماعة متذمّرين على يسوع (آ. ٧) وينتقدون سلوكه، حاكمين على زكا أنّه رجل خاطئ وعلى يسوع كيف يبيت عنده. لا يصلح موقف المتذمّرين أن يكون مثلًا لنا. فوصية «لا تدينوا لئلا تُدانوا» تدفعنا ألاّ نفكر سوءًا في الآخرين، حاكمين عليهم بحكم مؤبّد، بل علينا أن نفسح لهم المجال أن يعملوا على تجدّد دائم لصورتهم فتصبح مغايرة لتتي كوّناها عنهم.

ثم نرى الأعمال التي سيقوم بها زكا كتعويض عن أخطائه الماضية (آ. ٨). تُفهم هذه الأعمال إمّا كتفويض لقانون روماني أو يهودي قديم وإمّا كتعبير عن كرم فيّاض من رجل تائب. ما يهّمنا أنّه علينا أن نحقق توبتنا عمليًا بأفعال تعويض تُبرهن عن مقصدنا الجديد النابع من اكتشاف رحمة الله لنا واقتاده لضعفنا.

تحدّث نهاية النص (آ. ٩-١٠) عن ابن الانسان الذي جاء يبحث ويخلص الهالك، فهو بذلك يبرهن عن حبه للعالم وإرادته أن يبلغ كل الناس، بما فيهم الخطأة، إلى فرح الخلاص. هنا يظهر يسوع بمظهر الراعي الصالح الذي يجدّ في إثر خرافه كي لا تضيع. يكفي لنا أن نكون من حظيرة المسيح، يغدّينا من قوته اليومي ويرعانا ببركاته الدائمة، فلا نحيد عن الطريق، فنسمع صوته ونصغي إلى كلامه، ونبقى محفوظين في الفرح الدائم، وبعد عمر طويل في الخلاص الأبدي.

## ٢.٢ - التأويل

نستخلص من إنجيل اليوم المقاصد الروحية التالية: علينا السعي الدائم للقاء يسوع، من خلال المشاركة في ذبيحة القديس يوم الأحد والصلاة الشخصية كل يوم، لأن اللقاء معه منبع للسلام. عند الخطأ، علينا الإسراع بطلب المغفرة، والتعويض للذين أسأنا إليهم؛ فالاعتراف الحقيقي يتطلّب، بعد فحص الضمير، ندامة، إقرارًا وتعويضًا. أهم ما يتطلب منا هو عدم احتقار الآخرين وإدانتهم بسبب مظهر خارجي أو انطباع شخصي. علينا التفكير فيهم دائمًا بإيجابية. فإن الثقة بحب الله لنا وغفرانه اللامحدود لكثرة خطايانا تدفعنا لعيش الإيمان به كراع أمين لنفوسنا، يريد ألا يهلك البشر بل أن يأتوا إلى يناييع الخلاص ويرتووا من بركاته.

تعويضًا من حياة مرّت في أنانية وتكديس للمال وخيرات هذه الدنيا، نرانا أيضًا، من خلال قراءتنا لهذا النص، مندفعين عمليًا إلى المشاركة مع أختوتنا البشر، بما أغدق علينا به الله من بركات. فالمشاركة بين الأغنياء والفقراء هي إحدى الدعوات المُلحّة في هذا النص، إضافةً إلى التوبة والتعويض عن الأخطاء السابقة. التبرّع للمؤسسات الخيرية، زيارة أحد بيوت الراحة أو المياثم وتقديم الهدايا والمساعدات على أنواعها قد تكون ترجمة عملية للتوبة الصادقة والانفتاح على الآخر.

## ٣ - التعليم اللاهوتي والروحي: الخطيئة والتوبة

تكمن حياة الإنسان في العلاقة الطيبة مع الله، وحين يتعد الإنسان عن خالقه إنما يتعد عن مصدر حياته، عن الذي يعطيه أن يحيا وينمو ويفرح. ولأن محبة الله لا حدود لها، ولا حاجز يقف أمام عطاياه للإنسان، يتدخل ليحرك قلب الإنسان فلا يبقى أسيرًا للظلام ولا فريسة للشّر، بل يتوب ويفتح على الله من جديد. في توبة زكّا نرى كيف أن اقتراب يسوع منه جعله يعي قبح ما اقترف تجاه الناس وبالتالي تجاه الله.

فالخطيئة إذن هي ما يبعدنا عن الله، هي ذنب نقترفه تجاهه، في العلاقة معه. وكأني أقول له أنا أريد أن أتصرّف على هواي، تابعًا ل رغباتي حتى ولو كانت ضدّ المحبة، مخالفًا وصيئتكم. هذا ما جرى مع

آدم في الجنّة، حين عصى كلمة الله وتبع رغبته في أن يصبح هو إلهًا، مصغيًا إلى صوت الشرّ. هذا ما يحصل في كلّ مرّة أُعتبر أيّ أنا المرجع الذي يحدّد ما هو الخير وما هو الشرّ مستغنيًا عن كلمة الله.

هذه هي الخطيئة حين أخون العلاقة مع الله، بطريقة واعية بتصرّف تجاهه، أو تجاه الإنسان، أو تجاه نفسي. وقد تكون الخطيئة بالفعل، أو بالقول، أو بالإهمال، أو بالنية. وينتج عن ذلك ابتعادي عن الحقّ، وعن الحقيقة، فتغطّي الظلمة قلبي وتغمره.

تقطع خطيئتي هذه العلاقة مع الله من جهتي. أمّا من جهته فهو كالأب الحنون الذي لا يترك أبناءه فريسة للذئب الخاطف. لذلك هو يعمل على أن ينيرني من جديد، يحرك قلبي بواسطة روحه القدوس، وبذاكرتي التي تعرف كم أنّ الله يحبني. وحين أندم وأعود أراه فاتحًا يديه يضمّني ويغفر لي. التوبة هي إذن عودتي إلى حضن الأب. التوبة هي كمن يغيّر طريقًا كان يسلكه، هي تغيير الاتجاه، بدل أن يكون ماضيًا إلى البعيد، يقوّم طريقه ويمشي صوب الله. ولأنّ لا أحد يمنح الغفران لنفسه بل يقبله هديّة، آتي إلى الكاهن ليحلّني من خطاياي.

وحين أتقدّم من الكاهن لأعترف بالخطايا التي صنعتها وأعلن ندامتي عليها وطلبي لرحمة الله، هو يساعدني لأنتمسّ الطريق الجديد الذي عليّ سلوكه. وكيف يمكنني أن أبني شخصيتي المسيحية الأمانة فلا أقع مرّة ثانية في الخطيئة. وعندما أنال سرّ التوبة والغفران أشعر ان حملًا ثقيلًا غريبًا عني قد أزيل، وأختبر كيف أنّ محبة الله هي أقوى من كلّ شرّ، ولها الانتصار. سكنت في قلبي وفزت معها وبها.

٤ - للقراءة والتأمل: قراءة من كتاب التعليم المسيحيّ للكنيسة الكاثوليكية (عدد ١٤٣٤)

### مختلف أنواع التوبة في الحياة المسيحية

توبة الإنسان الباطنة قد تتخذ تعابير هي غاية في التنوع. ويلجّ الكتاب المقدس والآباء على ثلاثة أشكال لها: الصوم والصلاة والصدقة (متى ٦: ١-١٨)، وهي تعبّر عن الارتداد في علاقته مع الذات ومع الله ومع الآخرين. فإلى جانب التنقية الجذرية التي تتمّ بالمعمودية أو بالاستشهاد، يذكرون من بين الوسائل المعتمدة لنيل مغفرة الخطايا: الجهود المبذولة للتصالح مع القريب، دموع التوبة، الاهتمام بخلاص القريب، شفاعة القديسين، وممارسة المحبة التي تسترّجماً من الخطايا.

